# الأصل العربي للتحركات الكبرى للساكنة البربرية في الأطلس المتوسط[1]

تأليف: جورج سيرافين كولين[1]

تعريب: الدكتور. ادريس أقبوش

باحث في التاريخ والتراث، ثانوية محمد السادس للتميز، ابن جرير المغرب

ترك جورج سيرافين كولين مجموعة من الدراسات، يهمنا منها مقاله حول الأصل العربي للتحركات الكبرى للساكنة البربرية في الأطلس المتوسط، الذي صدر سنة 1938 بمجلة هسبيريس بالفرنسية وعدد صفحاته أربع.

التعريب:

منذ الفتح العربي إلى حدود القرن العاشر الميلادي وصلت قبائل زناتية بربرية من المغرب الأوسط إلى شمال المغرب الأقصى، حيث استقرت قبائل: لواته، مغيلة، مديونة، ثم مكناسة، مغراوة، بنو يفرن، على السفوح الجنوبية للأطلس المتوسط، وعلى ضفاف ملوية الوسطى، وفي تادلة. وكان سكان هذه القبائل يتجمعون في مراكز على شكل مدن صغيرة، بينما كانت تستقر في الجزء الأوسط للأطلس المتوسط قبائل صنهاجة البدائية.

ظلت الأوضاع كما هي عليه ودون أي تغيير عرقي إلى حدود القرن السادس عشر. وفي إطار توسعات الدولة المرابطية نحو الشمال، قام يوسف بن تاشفين في عام 1065 بتخريب المدن الزناتية والتي اندثرت نهائيا، حيث كانت تلعب دورا كبيرا في تعريب السكان ومقاومة القبائل الصنهاجية.

وإلى حدود القرن 17م، لم يكن وسط الأطلس المتوسط يلعب أي دور سياسي في تاريخ المغرب، ورغم ذلك كانت له مكانة اقتصادية مهمة، حيث كانت تخترقه الطريق التجارية الكبرى فاس سجلماسة من شماله إلى جنوبه، وهي الطريق الرابطة بين فاس وأغمات ثم مراكش، وتمتد عبر فازاز وتادلة، هاتان المدينتان اللتان تحدهما المدن الصغرى.

وفي القرن 18م، طرأ حدث جديد، يتعلق الأمر بلجوء القبائل العربية الرحل الذين جاؤوا من شبه الجزيرة العربية عبر مصر، وطرابلس والمجال الصحراوي للمغرب الأوسط، ودخلوا المغرب الخارجي عبر الجنوب الشرقي، وانتشروا بسرعة من مصب ملوية إلى سوس، وأخضعوا المستقرين في القصور والواحات لسلطتهم، وفرضوا عليهم حماية قوافلهم.

لم تستطع قبائل بني معقل الرحل اجتياز جبال الأطلس نظرا لقوة الدولة الموحدية والمرينية، وبالتالي ظلت بني معقل محاصرة في المناطق الصحراوية. ومع ضعف المرينيين ستتغير الأوضاع لصالح قبائل عرب بني معقل الذين فتحوا باب الهجرة على مصراعيه. فقد زحفوا نحو الشمال وشقوا كتلة الأطلس المتوسط في بداية القرن السادس عشر، محدثين بذلك ثغرة وسط القبائل الصنهاجية التي وصلت قبل ذلك، ومحددين هدفهم الرئيسي في الوصول إلى السهول. وكانت من طلائعهم الأولى حسب حسن الوزان (ليون الإفريقي) قبائل بني احسن المعقلية الذين تقدموا خلال فصل الصيف حتى المكان المسمى خنيك الغربان (المنطقة التي توجد بين ميسور وألميس كيكو على الطريق الرابطة بين تافيلالت وفاس)، كما كانت من طلائعهم أيضا قبائل زعير الذين انتشروا خلال فصل الصيف في سهل أدخسان قرب خنيفرة.

في بداية القرن السابع عشر، تقدم بنو أحسن في اتجاه الشمال. عبر كيكو، وانتشروا في الأنسور وصفرو حيث لا تزال ذكراهم حية، وكذلك ذكرى رفاقهم من غمارة. هكذا شق بنو معقل الطريق عبر السكان البرابرة الصنهاجيين الموجودين في الأطلس المتوسط، وخلقوا إذا فراغا، وجاءت قبائل أخرى، بربرية هذه المرة، فحذت حذوهم، وسيكون المعقليون ضحايا الانهيار الجليدي الذي تسببوا فيه. وربما بفضل الحركة الدلائية منذ القرن السابع عشر الميلادي، بدأت هذه التحركات للسكان الأمازيغ.

تحركت قبائل آيت يوسي خلف بني احسن إلى أن وصلت إلى كيكو في عهد المولى اسماعيل الذي أنزلهم حول ممرات الأطلس المتوسط، وذلك لحراسة الطريق الرابط بين فاس وتافيلالت. ثم اجتازت منطقة كيكو ودفعوا ببني حسن نحو الغرب في اتجاه مكناس. وفي سنة 1683 نزلت قبائل آيت ادراسن الصنهاجية بدورها من الجبال في اتجاه السايس، لكن السلطان مولاي اسماعيل طردهم وأرغمهم على الرجوع إلى مواطنهم الجبلية، وشيد قصبة أزرو، وقصبة عين اللوح. وفي نفس العهد ظهرت قبيلة آيت سغروشن وبني مطير في المنطقة الشمالية للأطلس المتوسط.

بعد وفاة السطان مولاي اسماعيل سنة 1727 تحركت آيت ادراسن وخاصة زمور وكروان في اتجاه أزرو وعين اللوح ودفعوا بني حسن الذين توجهوا نحو أولماس بين نهري بهت وبورقراق. حيث كانت لا تزال في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي. لكن الزموريين بدورهم قد تم دفعهم نحو الغرب من قبل بربر الجبال الآخرين، بني مكيلد. ثم تحركوا نحو البحر، ودفعوا بني احسن إلى المعمورة وسهول الغرب المستنقعية. هذا هو المكان الذي سيوقف فيه المحيط، وكذلك الاحتلال الفرنسي، ملحمة بني احسن، الذين جاؤوا كغزاة من ملوية العليا إلى سايس، ثم قطعوا بقية الرحلة كشعب مهزوم.

ولم يكن بديلهم المباشر شمال كيكو، أيت يوسي، أكثر سعادة. وسرعان ما تم قلبهم وخلعهم من قبل آيت سغروشن القادمين من جنوب شرق المغرب والذين وصلوا عبر ممرات تيشوكت، بينما في الشرق، تم سحقهم من قبل بني واراين. لولا تدخل فرنسا، كان من المؤكد أن بني واراين وآيت سغروشن سيواصلون مسيرتهم إلى الأمام حتى أبواب فاس، وفي طريقهم سحقوا غياتة وبني يازغا وآيت يوسي في هذه العملية. أما على المنحدر الشرقي، فنجد –بطريقة أقل تعقيدا–نفس سلسلة التحركات من الجبل إلى السهل. ومع بداية القرن السابع عشر، كانت قبائل زعير وصلت خلال فصل الصيف إلى منطقة خنيفرة، ومع نهاية هذا القرن أصبح مجالها يمتد من سهل تكريكرة إلى حدود مولاي بوعزة.

وخلال القرن السابع عشر، تحركت ساكنة المنطقة: آيت أومالو وآيت يافلمان على غرار آيت ادراسن في اتجاه الشمال بالرغم من المحاولات التي قام بها مولاي اسماعيل وأبناؤه في المنطقة العليا لأم الربيع لمنع تدفق هذه القبائل نحو الشمال الغربي. واستطاعت قبائل زيان دفع قبائل زعير نحو أودية بورقراق وروافده: كرو وكريفلة. وهددوا الرباط وسلا عام 1651.

انطلاقا من هذا العرض المختصر، يبدو واضحا أن حركة توسع البربر من الأطلس المتوسط نحو الشمال والغرب ذات أصل عربي، وهي الحركة التي حظيت بمكانة مهمة في التاريخ الداخلي للمغرب ابتداء من القرن 17 إلى حدود 1912.

وقد أطلق رحل معقل خاصة، بنو أحسن والزعير، هجرات البربر نحو الشمال، من خلال تقدمهم من ملوية العليا نحو وادي سبو وأم الربيع، فمهدوا الطريق لهم عبر الأطلس المتوسط.

**George S. Colin**

**الهوامش:**

[1]- عنوان المقال الأصلي ORIGINE ARABE DES GRANDS MOUVEMENTS DE POPULATIONS BERBERS DANS LE MOYEN-ATLAS. وتوثيقه كالتالي:

"Georges Séraphin Colin, ORIGINE ARABE DES GRANDS MOUVEMENTS DE POPULATIONS BERBERS DANS LE MOYEN- ATLAS". **Hespéris**, V XXV, 1938, pp, 265- 268.

[2]- ولد بـ champagnole (Jure) يوم 4 يناير 1893 وتوفي بباريس يوم 24 يناير 1977م، حاصل على ست دبلومات من مدرسة اللغات الشرقية(العربية الحرفية، العربية الشرقية، الفارسية، التركية، الحبشية، المالية)، تم تعيينه كطالب دراغومان في نهاية الحرب العالمية الأولى، وبعد ذلك تم فصله عن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة. التحق بالمغرب عام 1921م مساعدا لرئيس قسم علم الاجتماع بطنجة، ثم مديرا للدراسات بمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط عام 1926، وهو المنصب الذي شغله حتى عام 1958م. عين عام 1927م في مدرسة اللغات الشرقية لتعليم اللغة العربية المغاربية، خلفا لويليام مارسي المعين في كلية فرنسا، حتى تقاعده في عام 1963م. قام بعد تقاعده بتحرير العديد من نصوص العصور الوسطى من الغرب الاسلامي. سارت مسيرته الدبلوماسية بالتوازي مع أنشطته التعليمية والعلمية، حيث مارس مهنة الباحث والدبلوماسي ومترجم من العربية إلى الفرنسية.